الخِطاب السِّياسي لدى الإمام الحسن المُجتبى عليه السلام
ـ دراسة في البُعد التداولي ـ

المدرس الدكتور
خالد إسماعيل صاحب السعيدي
العراق ـ ذي قار

المقدمة:

الخطاب السياسي شكل من أشكال الخطاب، يعمل المتكلم (فرداً كان أو جماعةً أو حزبًا) بواسطته على مواصلة تملك السلطة في الصراع السياسي، ضد أفراد أو جماعات أو أحزاب أخرى. ويركز الخطاب السياسي على التأثير في المتلقي، باعتباره خطاباً مرتبطاً على الدوام بالسلطة، إذ يعتبر من أهمِّ الأدوات التي تلجأ إليها الفرق السياسية قديمًا وحديثًا، للوصول إلى مراكز القرار والسلطة ولإضفاء المشروعية على محاولاتها.

فمن دون شك، شكَّل الخطاب السياسي لدى أهل البيت - منذ ظهور الرسالة النبويَّة وبعد وفاة الرسول - أحد أهم نوعي الخطاب المتمثل بـ(الخطاب الديني، والخطاب السياسي). وهذا يدلُّ على وحدة الهدف في المشروع الرسالي النبوي، إذ يعد الأئمة الأطهار المكمل الشرعي لهذه الرسالة المقدسَّة.

وعليه، كان الإمام الحسن المجتبى عليه السلام أوَّل السلسلة الإمامية العلوية التي نشأت وترعرعت في كنف نبوّة وإمامة. فقد شهدت حياته السياسية أحداثًا انقسمت حيالها على مراحل: الأولى تبدأ في حياة الرسول وأبيه، والثانية تبدأ في عهد الخلافة، والثالثة تبدأ في بالبيعة له بالخلافة، والرابعة تبدأ من بعد الصلح إلى استشهاده.

هذه المراحل تخللها إرثٌ خطابي كبير، دفع بنا إلى دراسته في إطار النظرية التداولية التي تعمل على فهم الخطاب في الاستعمال، وقد اعتمدنا فيه على محورين:

الأول: خطابه السياسي في ضوء نظرية أفعال الكلام، فهذه النظرية تعدُّ أولى الأفكار التي انطلقت منها الفلسفة التداولية، ومجالًا مهمًا من مجالات البحث التداولي اللغوي. وضع لها أوستين ثلاثة مستويات من الأفعال في الكلام، وهي جوانب مختلفة لفعل كلامي واحد، لا يفصل أحدها عن الآخر. فنلحظ تجليات خطاب الإمام ضمن هذه الثلاثية الأوستينية، وهي فعل الكلام، وقوة فعل الكلام (الفعل الإنجازي)، ولازم أفعال الكلام(الفعل التأثيري).

ومن ثم ينتقل الكلام إلى صور الخطاب في إطار الفعل الكلامي المباشر وغير المباشر، في أطروحة سيرل. بمعنى أنَّ هذا الجانب سيكون تطبيقًا لنظرية أفعال الكلام وفق المفهوم المكافئ عند العرب في نظرية (الخبر والإنشاء). فالمتكلم قلَّ ما يكون واضحًا في كلامه، وبإمكانه استعمال أيٍّ من الصيغ النحوية في التعبير عن المغازي الكلامية المختلفة، فكلُّ جملة لها مغزى كلامي يتولّد من صيغتها الشكلية أو النحوية. فيكون الفعل مباشرًا إذا تطابق القول مع الإنشاء، أمّا غير المباشر يفضي إلى الانتقال من معنى الجملة إلى معنى المتكلم. وهاتان الصورتان من المشغلات الخطابية السياسية الرئيسة لدى الإمام الحسن عليه السلام.

ثم كان لأصناف أفعال الكلام لديه مدخلٌ واسعٌ، فلا يخفى أنَّها في صميم البحث التداولي، فهي تتوزع في خطابه على(الحكميات، والتنفيذات). وهما يقعان في صلب الممارسة التشريعية، وبممارسة السلطة، والقانون، والنفوذ، وإصدار الأوامر التفسيرية في المذكرات، وإعطاء التوجيهات التنفيذية القريبة من النصح والتحذير وغيرها. أضف إلى ذلك أصناف الوعديات، والسلوكيات، والطلبيّات والتوجيهات، والتعبيرات.

الثاني: خطابه السياسي في ضوء نظريات الحجاج، إذ يعتبر الخطاب السياسي خطاباً إقناعيًا بامتياز، يهدف إلى حمل المخاطب على القبول والتسليم بصدقية الدعوى عبر وسائل حجاج متنوعة، تتظافر فيها الوسائل اللغوية والمنطقية ومكونات تعبيرية أخرى موازية للتواصل وفق ما يقتضيه المقام.

لذلك كان الحجاج المحور الثاني في البحث، محاولة الكشف عن الوظيفة الحجاجية في خطابه السياسي، تسبقه المعطيات النظرية التي قاربت مبحث الحجاج. فالحجاج تتشكل مظاهره في خطب أصحاب السلطة وأنصارهم، وفي خطب معارضي السلطة، وفي خطب الأحزاب السياسية.

وقد اعتمده الإمام الحجاج في خطابه، فهو يقع ضمن الآليات الحجاجية التي رسمتها النظرية اللسانية الحديثة، لاسيما في ما عرضة شارل بيرلمان وتيتيكاه بما يعرف بـ(مصنف في الحجاج ـ الخطابة الجديدة).

لا يمكن إغفال مقولة ديكرو الحجاجية، المتمثلة في أنَّ اللغة في أصلها حجاجية. بذلك كانت ثنائية الحجة والنتيجة سمة بارزة خطاب الإمام، بوصفها ركنٌ مهم من أركان هذه النظرية، ينضاف إلى ذلك (الروابط والعوامل الحجاجية) التي تربط بين المدلولين.

أمّا الركن الثالث، يعرف بـ(السلّم الحجاجي). فقد ورد خطابه الحجاجي متعدد الحجج التي تنتمي إلى فئة حجاجية واحدة، إلاّ أنها تختلف في ما بينها من جهة قوة الحجة وضعفها. أدى ذلك إلى وضع تراتبية منطقية تحكمها، فكل قول يرد في درجة ما من السلَّم يكون القول الذي يعلوه أقوى منه.

وفي نهاية المطاف، فأنَّ هذه الدراسة الموجزة، قد تكون قادرة - ولو جزئيًا - على رسم صورة البعد التداولي في خطاب الإمام عليه السلام السياسي، إذ كان هدفه الأول التواصل مع المتلقي في إطار تداولي يقع ضمن استراتيجيات منها أفعال الكلام و المنهج الحجاجي.

القسم الأول

خطابه السياسي في ضوء نظرية أفعال الكلام

تعدُّ نظرية الأفعال الكلامية أو الفعل الكلامي[١] (speech act) – أولى الأفكار التي انطلقت منها الفلسفة التداولية، ومجالًا مهمًا من مجالات البحث التداولي اللغوي، فهي تقوم في أصلها على جذور(لغوية وفلسفية). وتعني((التصرّف أو العمل الاجتماعي أو المؤسساتي الذي ينجزه الإنسان بالكلام))[٢].

وأصبحت هذه النظرية ذات فعالية في مجال البحث التداولي؛ لتميِّزها بجدة مصطلحاتها، وطريقة معالجتها للغة بوصفها ((وسيلتنا للتأثير في العالم وتغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كليّة))[٣]. وهذه مقولة لا يمكن إهمالها لبواعث أهمُّها أنَّنا من خلال اللغة يمكننا أنْ نُغَيّر الطبيعة بشكل تعجز عنه الكائنات الأخرى أنْ تقوم بمثله، وذلك تابع لغاياتنا المتنوعة. ((فالفعل يتميّز عن سائر الأحداث التي تجري في العالم، بأنَّ الإنسان من حيث هو فاعل يتبع غايات معينة يختارها هو لنفسه))[٤]، أضف إلى ذلك أنَّ القدرة العقلية لها القابلية على رسم بنية العالم[٥]. ومن أجل ذلك أخذت هذه النظرية تستأثر اهتمام الباحثين، كعلماء النفس، ونقاد الأدب، والفلاسفة، واللغويين، والمختصين بالعلوم العديدة الأخرى[٦].

يقوم المتكلم في التعبير بإنشاء ألفاظٍ تحوي بنى نحوية ذات قوة وظيفية، تنجز أفعالًا عبر هذه الألفاظ، أي ارتباط الكلام أو القول مباشرة كما يشير فان دايك[٧]. فقولنا: أنت مطرود، فأنه يفوق الجملة الخبرية. وهذا يعني أنَّ الكلمة الواحدة تتعدد معانيها بتعدد استعمالنا لها في الحياة اليومية، وتتعدد معاني الجمل بحسب السياقات التي ترد فيها.

فاللغة ((ليست وسيلة للتواصل فقط، وإنَّما هي أيضا وسيلة للتأثير في الواقع وتغيير سلوكنا ومواقفنا))[٨]. قسّم أوستين الملفوظات على قسمين: الملفوظات

التقريرية، والتي تنحصر وظيفتها في وصف الحالات والأشياء، وتخضع لحكم الصدق أو الكذب. وهي تقال لوصف شيء أو تصويره أو تنقل تقريراً عن العالم. والملفوظات الإنجازية أو الأدائية، والتي من خلالها ننجز فعلًا ما، كالوعد، أو الأمر، أو التهديد، ولا تخضع هذه الملفوظات في هذا الجانب لمعيار الصدق أو الكذب[٩].

ولعلَّ عمله في هذا الحقل ونضج الفكرة لديه أدَّى به إلى فكرة جديدة في التقسيم، ومن هنا وضع ثلاثة مستويات من الأفعال في الكلام، وهي جوانب مختلفة لفعل كلامي واحد، لا يفصل أحدها عن الآخر، وسألتزم بتسمية أوستين لها:

الأول: فعل الكلام ((فهو النطق ببعض الألفاظ أو الكلمات أي إحداث أصوات على أنحاء مخصوصة، متصلة على نحو ما بمعجم معين، مرتبطة به، متمشية معه، وخاضعة لنظامه))[١٠]. ويتكون هذا الفعل من الصوت، والتركيب، والدلالة.

الثاني: قوة فعل الكلام(الفعل الإنجازي)، وهو الذي ينجز((عبر قوة اللفظ التواصلية... لإنشاء جملة خبرية، أو لتقديم عرض أو توضيح، أو لغرض تواصلي آخر))[١١]. لكنه لا يبتعد عن القصد الذي يرومه المتكلم.

الثالث: لازم أفعال الكلام (الفعل التأثيري)، يقول أوستين: ((فأن نقول شيئًا ما قد يترتب عليه أحيانا أو في العادة حدوث بعض الآثار على إحساسات المخاطب، أو أفكاره، أو تصرفاته. كما يستلزم ذلك لوازم ونتائج قريبة تؤثر على المتكلم، وغيره من الأشخاص))[١٢]. وهو أثر الفعل الإنجازي في المخاطب الذي يتحقق نتيجة قولنا شيئًا ما، كالإقناع، أو التضليل، أو الإرشاد، أو التثبيط[١٣].

على سبيل المثال يقول شخص لصديقه: في الطريق خطر. فإنَّه ينجز فعلًا قوليّا

لفظيًّا منطوقًا، وحين يقول الشخص هذه الجملة فأنه يقدِّم تحذيرًا في الوقت نفسه، أي ينطق فعلًا إنجازيًا، وعندما يختار صديقه طريقًا آخر فأن ذلك هو النتيجة والأثر للمنطوق نفسه.

وإذ ما وجهنا النظر إلى تراثنا العربي، فإنَّنا نتفق مع الدكتور مسعود صحراوي في مقولته: ((إنَّ تطبيق هذا المفهوم التداولي - الأفعال الكلامية - على اللغة العربية سيُسهم في وصفها، ورصد خصائصها، وتفسير ظواهرها الخطابية التواصلية...))[١٤]. لذا بدا لنا بسط الخطاب السياسي لدى الإمام في هذا المحور وفق مستويات أوستين الثلاثة، نبدأ بالمستوى الأول وتطبيقاته في خطابه السياسي اعتماداً على مثال تطبيقي واحد يبعدنا عن الإطالة والتكرار.

ألقى الإمام الحسن عليه السلام في الليلة التي استشهد فيها أمير المؤمنين عليه السلام خطابًا جمع فيه شمائل ومفاخر منزلته العظيمة، وأبرز دوره وجهاده في الإسلام. فقد ساق الإمام في سياق الموقف فعلًا قوليًّا، نجد فيه المشغل الصوتي أو التلفظي، وكذلك العمل الصيغي والعمل الريطيقي. مهّد من خلاله لفعل إنجازي لبيان قصده وهدفه؛ لأنَّ قوة القول عند أوستين تحدد مقاميًا. إذ قال: ((لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل، ولا يدركه الآخرون، ولقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله فيقيه لنفسه، ولقد كان يوجهه برايته فيكتنفه جبرائيل عن يمينه، وميكائيل عن يساره... أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد صلى الله عليه وآله، أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله عزّ وجل بإذنه، أنا ابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرا، والذين افترض الله مودتهم في كتابه))[١٥].

فالنسق الصوتي في فعل الكلام لدى أوستين، يدل على التنغيم والنبر والحركات المصاحبة لسياق النص، نحو حركات الحاجب والكف واليدين وغير ذلك. فضلاً عن التركيب اللغوي، والنحوي، والمعجمي. فدلالة التنغيم هنا في النص متأتية من تقطيع النص إلى جمل وإيقاعات متساوية متداخلة ومسجوعة:

الأولون - الآخرون، لنفسه - عن يمينه - عن يساره، مع إلقائها بنغمة صاعدة وأخرى نازلة. ولا يخفى أنَّ((من أهمِّ الظواهر الأسلوبية في النثر، وهو يعطي الكلام مكانة أقرب إلى الرجز والقصيد وإنْ كان دونهما))[١٦].

أمَّا البعد النحوي فتمثّل باستعماله التوازيات ذات النسق النحوي الواحد عن طريق تركيبة الإخبار(قبض في هذه الليلة رجل)، ويلحق الإخبار التركيب بأسلوب النداء (أيها الناس)، فضلاً عن الجملة الفعلية(عرفني، لم يعرفني)، والاستفهام الذي يُلطِّف ممَّا يكون بين المتكلم والمخاطَب من حدّة التوتر، فهو((أمر يريد به المتكلم من المخاطب قولًا، لذلك كانت حروفه بالفعل أولى، وكان أثره في الكون ألطف من الأمر والنهي))[١٧].

ويتّضح لنا التكوين المعجمي المكون من المعنى الحقيقي في لفظ(البشير، النذير، الداعي إلى الله عزّ وجل، السراج المنير، فضلاً عن الاستعمال الصيغي الصرفي للمصدر (طهّرهم - تطهيرا).

بوساطة المعاني التي فهمناها من النص، نتوصّل إلى أنَّ الفعل القولي فيه تكوّن من أصوات لغوية انتظمها تركيب نحوي أدَّى بها إلى إنتاج معنى محدد من هذا التركيب، وله مرجع يحيل إليه. وفي كل من العموم والخصوص فعل إنجازي، كان له فعلًا تأثيراً موجوداً في المخاطَب، أي أنَّ دائرة التأثير اكتملت؛ وهذا عائد إلى عمومية التركيب اللغوي في الخطاب كما ذكرنا، وصدوره من مرتبة أعلى من المخاطَب بصيغة توحي إلى ضرورة إظهار التأثير في زمن الخطاب. تمثّل هذا التأثير ببيعة جماهيرية((شاركت فيها الأمة برغبة دون إكراه ولا تعيين يلجئ أحد أنْ ينقاد إليها دون قناعة واطمئنان))[١٨].

وبالتالي كانت هذه الأفعال الصغرى في خطاب الإمام فيها سمة التداخل في ما بينها، وفيها فعلًا تلفظيًّا يحمل معنًى معيّنًا؛ ((ذلك أنّنا في أيّة عملية كلامية لابدَّ أنْ نُصدر متواليةً من الأصوات تنتمي إلى لغةٍ معيّنةٍ، ويجب في هذه الأصوات أنْ

تكون خاضعةً ومطابقةً للقواعد النحوية والتركيبية لهذه اللغة، وبذلك نضفي على هذه المتوالية معنًى معيّنًا))[١٩].

وإذا انتقل الحديث إلى المستوى الثاني من مستويات أوستين وهو (قوة الفعل الكلامي)، يستلزم الأمر إيضاحها، إذ تعني الغرض الذي يبتغيه المتكلم، كأن يكون استفهامًا أو نهيًا أو حثًا أو ترغيبًا أو تحذيرًا. فهي تشهد تنوع وكثافة في نظرية أفعال الكلام، وأكثر الأغراض اتّساعاً على خريطتها في خطابه السياسي هي قوة **بيان الأحقية في الحكم**.

فبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله ظهرت أعلى صور هذه الأحقية في بيان صلة القربى، ولاسيّما عند أهل بيت النبوة كخطبة الإمام علي عليه السلام التي أظهر فيها قرابته من رسول الله وحقه في الخلافة، فقال:((فإنَّه لم يمنعنا من أنْ نبايعك يا أبا بكر إنكارٌ لفضيلتك، ولا نفاسةٌ عليك بخير ساقه الله إليك، ولكنّا كنّا نرى أنَّ لنا في هذا الأمر حقّاً، فاستبددتم علينا))[٢٠].

وعلى هذا الأساس تنوعت هذه القوة في مقولة الإمام الحسن على ثلاث، في الأولى قوة إنجازية تعمل في نقل حصر ذهن المخاطب إلى الإخبار بصورة القوة والمقدرة؛ لأنَّ الإخبار يُلقى((إلى من هو خالي الذهن عمّا يلقى إليه ليحضر طرفاه عنده، وينتقش في ذهنه استناد أحدهما إلى الآخر ثبوتًا أو انتفاء، كفى في ذلك الانتقاش حكمه، ويتمكن لمصادقته إياه خاليًا))[٢١].

أمَّا في الثانية تحولت القوة الانجازية إلى إظهار صدق دعوة المتكلم. في حين تمثلت القوة الإنجازية في الخطاب الأخير في التأكيد على إثبات الصفة الشرعية لخلافته كم خلال متضمنات القول، في قوله (فأنا الحسن بن محمد صلى الله عليه وآله، أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله عزّ وجل بإذنه، أنا ابن السراج المنير).

وفي قسمات خطابه السياسي قوى كلامية أُخر فإننا نتلمس **قوة الحث**، تعد أسلوبًا أو طريقة عرض الفكرة فعلًا إنجازيًّا بشكل واضح، من خلال طرح فكرتين

في صورة أشبه ما تكون حوارية، فقد ألزمت المُخاطب عدم تجاوزها والبقاء في نطاقها. وهذا قائم بشكل عام على أنّ للمتحدثين نوايا متباينة في أية لحظة من لحظات الكلام.

ومنطلق القوة الانجازية الأخيرة قرآنيًا أكد عليه بقوله: ((اتقوا الله فإنّا أمرائكم، وأوليائكم، وإنّا أهل البيت الذين قال تعالى فينا((إنّما يريدُ الله ليذهبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيت ويطهركم تطهيرا))[٢٢]))[٢٣].

إذ ما كاشفنا هذا النص من نافذته السياسية، نستطيع أنْ نعبِّر عن ذلك بأنَّه تنافسٌ سياسيٌّ، قائمٌ على((طلب للسلطة السياسية من جهة فريقين أو أكثر،... فهو أشدُّ مطابقة مع منطق السلطة من التصارع، وأكثر مرونة وسلميّة من التنازع الذي يقبل الحل عن طريق التسوية))[٢٤].

وقد توافرت على خطابه السياسي قوة **التحذير**، بقوله:((أحذركم الإصغاء لهتاف الشيطان بكم، فإنّه لكم عدو مبين فتكونوا كأوليائه... فتلقون إلى الرماح وزار، وإلى السيوف جزار، وللعمد حطما، وللسهام عرضا، ثم لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا))[٢٥].

والنوع الآخر من قوة الكلام هو **الترغيب**، إذ قال: ((نحن حزب الله الغالبون، وعترة رسوله الأقربون، وأهل بيته الطيبون، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله في أمته))[٢٦].

منها قوة **الدعوة إلى الطاعة**، في مكاتبة الإمام عليه السلام لمعاوية ابن أبي سفيان، بقوله:((دع التمادي في الباطل، وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي، فأنك تعلم أنّي أحق بهذا الأمر منك عند الله، وعند كل أوّاب حفيظ))[٢٧].

إذن فالقوة الخبرية المباشرة قد تمكنت من السامع في هذه الحالة، وحققت مبتغاها التداولي في إيصال ذلك الإخبار إليه من خلال جريانه في معناه الأصلي من دون حاجة إلى إيضاح وتفسير.

ومن تلك القوى **الوعد** الذي يبقى رهين الموقف المُستقبلي بالنسبة للمتلقي من جهة تحقيقه وعدمه في كلام مخاطبًا فيه معاوية، إذ قال: ((ليس الخليفة من سار بالجور، وعطل السنن، واتخذ الدنيا أمّا وأبا... ولكن ذلك أمر ملك أصاب ملكًا، فتمتع منه قليلًا، كأنْ قد انقطع عنه))[٢٨].

ولو انتقل الحديث صوب تطبيقات لازم أفعال الكلام في الخطابة السياسية تنجلي أمامنا أنماط عملت الخطابة السياسية على إبرازها بقصد في أكثر المواقف، ومن هذه الأنماط:

النمط الأول: **التأثير اللغوي**، ومعناه أن يكون التأثير أو الفعل مسبوق بإجابة خطابية أو ملفوظ كلامي. فعندما خطب الإمام قائلًا: ((إنّ معاوية دعا إلى أمر ليس فيه عزة ولا نصفه، فإنْ أردتم الحياة قبلنا منه وأغضضنا على القذى، وإنْ أردتم الموت بذلناه في ذات الله، وحاكمناه إلى الله))[٢٩]، كان الفعل التأثيري من قبل المتلقين لغويًا جماعيًا بقولهم: بل البقية والحياة.

النمط الثاني: **التأثير غير اللغوي**، وهو عكس الأول أي التأثير لا يكون مصحوبًا بكلام أو لفظ ما، وإنَّما يكتفي المتلقي بالتعبير عن تأثيره وقبوله حسيّاً كالإيمآت أو الإشارات أو تغيِّر الحالة النفسية للمخاطب من جهة الرضا كالبكاء مثلا وغير ذلك.

ففي خطبة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام لما عزم تسليم الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان، فإنه واجه اعتراضاً من قِبَل بعض أنصاره. دعا ذلك إلى الإبانة عن صواب هذا الأمر، حتى إلى قوله: ((أيها الناس إنَّما نحن أمراؤكم وضيفانكم ونحن أهل بيت نبيكم الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا))[٣٠].

فالإمام يأمرهم بالطاعة لما يفعل؛ لأنَّه صاحب قول الفصل فيهم. مما دعاه إلى تذكيرهم وتنبيههم من خلال تناصٍّ قرآني جعل أثره بارزاً فيهم. يتابع ابن الأثير في نقل ذلك فيقول: ((وكرر ذلك حتى ما بقي في المجلس إلا مَن بكى

حتى سمع نشيجه))[٣١].

قد يتبدى بوضوح لازم الفعل الكلامي الذي ابتغاه الإمام الحسن، وهو لم يلزم المتلقي بالبكاء، يتبدى بوضوح ردة الفعل غير اللغوية متبلورة بالبكاء الذي يدل على رفض تسنّم معاوية وقبول المحنة والتنزّل مع إمامهم عن الأمر.

وهذا النوع من الفعل التأثري قد ظهر كثيراً مع خطب الرسول وأهل بيته، ونعطي مثالاً آخر لذلك في خطاب الرسول صلى الله عليه وآله للأنصار، بقوله: ((أفلا ترضون يا معشر الأنصار أنْ يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم...اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار))[٣٢]. فهذا الفعل الكلامي الذي جاء بأسلوب عاطفي وجداني، أدّى إلى إجابة عاطفية وجدانية هي الأخرى ممثلة بالبكاء إلى حدٍّ أنَّهم اخضلُّوا لحاهم بتعبير الطبري[٣٣].

النمط الثالث: **الممازجة بين اللغوي وغير اللغوي**، كما في خطبة الإمام الحسن أمام معاوية، بقوله: ((إنّا قد أعطينا بيعتنا معاوية، ورأينا أنَّ حقن دماء المسلمين خير من اهراقها، والله ما أدري لعله فتنةٌ لكم ومتاعٌ إلى حين))[٣٤].

ويبدو أنَّ هذه الأخيرة فيها إشارة إلى معاوية، إذ لم يستطع أنْ يمنعه من الظهور، ((فغضب من ذلك وقال: ما أردت من هذه؟))[٣٥]، فهذا الأمر الذي جعل فيه أثرين احدهما نفسياً (الغضب)، والآخر لغويًا (الاستفهام).

الفعل الكلامي المباشر وغير المباشر:

يعد الخطاب السياسي ميداناً خصبًا للأفعال المباشرة وغير المباشرة؛ فطالما الكلام المرسل في موقف عياني لمتلق، من البدهي أنْ تكون مقصديته في بعض النصوص ظاهرة كما في النصوص المتقدمة، ومختفية في بعضها الآخر. يقول ابن الأثير:((ألا ترى أنَّ النحوي يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور، ويعلم مواقع إعرابه، وضع ذلك فإنَّه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة))[٣٦]. من أجل هذا سيكون هذا المحور تطبيقًا للأفعال غير المباشرة، في خطاب الإمام السياسي وفق

المفهوم المكافئ عند العرب وهي نظرية (الخبر والإنشاء). فالاشتغال على هذا المعنى في صميم العمل التداولي؛ لأنّه يفضي إلى الانتقال من معنى الجملة إلى معنى المتكلم. أدّى ارتباط الفعل الكلامي غير المباشر بالمعنى إلى وجود معانٍ إنجازية.

فهناك صور يخرج إليها الخبر بفعل كلامي غير مباشر ومنها **التأكيد** وبصيغة الأفعال الإنجازية الكبرى، وهذا يأتي من خلال تعميم الخطاب بدلاً من تخصيصه(٣٧). ومثاله في خطبة له عليه السلام في الكوفة بعد عقد الصلح مع معاوية ابن أبي سفيان: ((أيُّها الناس إنَّ الله هداكم بأوّلنا وحقن دماءكم بآخرنا، وإنَّ لهذا الأمر مدّة والدنيا دول))(٣٨). وهذا معلوم لدى السامع غير قابل للتأويل أنّه أراد معنى هدايتهم بالرسول صلى الله عليه وآله ومن أجله صرَّح بالنسب إليه بوساطة الضمير(نا)، وأشار إلى حقن دمائهم من قبله لأنّه هو المقصود بقوله(آخرنا)، إلاّ أنَّه جعل السامع بمنزلة المنكر وأكَّد كلامه بأداة التوكيد والغرض منه الإثبات ضد النفي والإنكار الذي أراده السامع. فكان توظيف الهداية وحقن الدماء والزمان تأكيداً على أنّ الأمر أو الحقَّ سوف يعود إليهم أهله.

ومن المعاني غير المباشرة التي يخرج إليها الأمر، كما في قوله: ((فليعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله لا بفضل الدين معروف))(٣٩). فالأمر هنا يؤدّي معنى نحوي أوّل، والاهانة والحط من شأنه هي معانٍ تداولية تتحدد بوساطة السياق وما يحيط بالمتكلم والسامع من أحداث وأوضاع عامّة وخاصة، وكذلك نوعية أو طبيعة العلاقة بينها.

ويفهم من الأمر لدى الإمام معنى غير مباشر وهو الالتماس، كالذي في قوله لأبي ذر الغفاري: ((قد أتى من القوم إليك ما ترى، فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها... واصبر حتى تلقى نبيك صلى الله عليه وآله، وهو عنك راض))(٤٠).

والاستفهام كغيره من أساليب الطلب الأخرى يخرج إلى معانٍ تداولية

كالإخبار، والتوبيخ، والتقرير، وغيرها، بوصفها أفعالًا كلاميةً غير مباشرة. من أجل ذلك تتوافر معطيات سياقية بين المتكلم والمخاطب يحققها من خلال الاستفهام، وكذلك يحقق لمواضعات اجتماعية. ومنها الخروج من الاستفهام إلى الخبر والذي يعرف بالتقرير، يقول ابن جني(ت٣٩٢هـ): ((ألا ترى أنّ التقرير ضرب من الخبر... من حيث همزة التقرير ما صارت تنقل النفي إلى الإثبات، والإثبات إلى النفي))[٤١]. فحينما علم الإمام بأنّ بعض القبائل نقضت عدها له، وأعلنت بيعتها لمعاوية قام خطيبًا، فقال: ((يا أهل العراق ما أصنع بجماعتكم معي وهذا كتاب قيس بن سعد يخبرني بأنّ أهل الشرف منكم قد صار إلى معاوية))[٤٢]. فالأمام على دراية تامّة بأنّهم يعرفون ذلك، فقد ((كتب أكثر أهل الكوفة إلى معاوية بأنّا معك، وإنْ شئتَ أخذنا الحسن وبعثناه إليك))[٤٣]. إلاّ أنّه قصد معنى حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه عن المخاطب بالإثبات عن النفي.

انتهت النظرية عند أوستين إلى وضع تصنيف للأفعال اللغوية على أساس قوتها الإنجازية، والملحوظة على هذا التصنيف أنَّه شهد ببدايته بقوله:((وقد كنت ذكرت أنّني سأحاول أنْ أُقدِّم تصنيفًا أوليًا عامًّا، وأبدي بعض الملاحظات على ما أقترحته من تصنيفات))[٤٤]. وهي كالآتي:

الحكميات:

ويتعلّق الأمر هنا بإصدار حكم شيء ما، نحو: التبرئة، والإدانة، والفهم، وإصدار الأوامر، والتقويم، والتصنيف، والوصف، والتحليل. وتصدر هذه الأفعال عن سلطة تشريعية وتنفيذية؛ لأنّ ((كلا الفعلين: التشريعي والتنفيذي هما من اختصاص ممارسة السلطة))[٤٥]. فأعلى ممارسة مقالية يؤديها صاحب سلطة آنذاك، أو زعيم حزب، أو قائد حركة سياسية؛ ((إذ لا بدّ أنْ تتواكب الصيغة بسلطة المرسل، وإلاّ خرج الأمر من معناه وخرج عن دلالته على قصد المرسل إلى مقاصد أخرى))[٤٦].

يرى أوستين أنَّ هذا النوع ((يختص بكونه ناتجًا عن إصدار حكم في المحكمة، سواء أكان ذلك الحكم من هيأة قضائية أم من محكِّم تختاره الأطراف))[٤٧]. وليس بعيداً عن أفعال هذا الصنف، الحكم الذي أطلقه الإمام في خطبة له في إعلان البيعة قائلًا: ((إنَّ علياً صلى الله عليه في المحيا والممات والمبعث، عاش بقدر، ومات بأجل، وإني أبايعكم على أنْ تسالموا من سالمت، وتحاربوا من حاربت))[٤٨].

التنفيذات:

يقول أوستين عن هذا الصنف: ((هو الممارسة التشريعية، فيتعلّق بممارسة السلطة، والقانون، والنفوذ، وأمثلة ذلك التعيين في المناصب والانتخابات وإصدار الأوامر التفسيرية في المذكرات، وإعطاء التوجيهات التنفيذية القريبة من النصح والتحذير وغيرها))[٤٩].

تميّزت التنفيذيات في الخطاب السياسي بالمراوحة في توجيهها إلى العموم والخصوص، وكذلك المراوحة بين الأساليب الطلبية من أمر ونهي. سواء كان ذلك بالطريقة المباشرة كـ(اعرفوا، واقبلوا، وتجاوزوا، ولا تميلوا، ولا تجعلوا)، وبالطريقة غير المباشرة كـ(أوصيته، ولا يقبل، ولا يتجاوز، وأمركم). كالذي قول الإمام في تبيان أركان الإمامة وشروطها، قال: ((أنهم هم الذين افترض الله طاعتهم، وأنهم أحد الثقلين))[٥٠].

الوعديات:

وهي عند أوستين في أنْ ((يلتزم الإنسان أنْ يفعل شيئًا ما، وقد يندرج في هذا الباب التصريح وإعلان النية والقصد))[٥١]، أي يلتزم المتكلم بفعل سلسلة أفعال محددة، مثل: وعد، وتمنى، والتزم بعقد، وأقسم والموافقة[٥٢]. إلاّ أنَّها لم تكن كلها لديه بمستوى واحد من القوة، فالوعد المشفوع باستعمال فعل إنجازي كالقسم أقوى من غيره الذي يظهر لمجرد الوعد.

وتعرض لنا نماذج من تلك الوعديات في إحدى خطب الإمام، بقوله:

((يا عجب من قوم لا حياءَ لهم، ولا دين مرة بعد مرة، ولو سلمت إلى معاوية الأمر فأيم الله لا ترون فرحًا أبدًا مع بني أمية، والله ليوفونكم سوء العذاب حتى تتمنون أنْ يلي عليكم جيشًا))[٥٣].

السلوكيات:

يعبِّر هذا النوع عند أوستين عن((ردود الأفعال على سلوك الآخرين وعلى ما لا قوه من نجاح أو فشل... كما تتضمن أيضاً المواقف وضروب التعبير عن أوضاع السلوك الماضية مما قام به الآخرون))[٥٤]. فالأمر يتعلَّق بردود فعل يتفاعل اتجاه سلوك الآخر، مثل: الاعتذار، والشكر، والتهنئة وغيرها[٥٥]. كما في خطبة للإمام مخاطبًا فيها عمرو بن العاص، قائلًا: ((فإنَّ أمرك مشترك، وضعتك أمك مجهولا، من عهر وسفاح، فتحاكم فيك أربعة من قريش، فغلب عليك جزَّارها، الأَمَهُم حسبًا، وأخبثهم منصبًا))[٥٦].

العرضيات:

جعل أوستين موضع هذا الصنف في ((طريقة العرض التي تقتضي أنْ نفسِّر بفضلها وجهات نظرنا، وسوق حججنا، وتوضيح استعمالاتنا للألفاظ، ومرجع إحالتها))[٥٧]. فهي تستعمل لعرض مفاهيم، وبسط موضوع، كالذي في خطابه لمعاوية قائلًا: ((فاليوم فليعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله لا بفضل الدين معروف، ولا أثر في الإسلام محمود، وأنت ابن حزب من الأحزاب، وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله، ولكنّ الله خيبك وسترد فتعلم لمن عقبى الدار))[٥٨].

القسم الثاني: في ضوء نظريات الحجاج:

يعد الحجاج من المداخل المهمة في مقاربة النصوص ذات الصبغة الاقناعية، كان الغرض من هذا المحور إبراز المقصد الحجاجي في الخطابة السياسية. فـ((هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في انجاز تسلسلات

استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى، يتمثل الحجاج في انجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها))[٥٩]. فكان التفكير الخطابي تفكيراً حجاجيًّا بامتياز؛ لأنّه يهدف دائمًا إلى التأثير والإقناع بإقامة الحجّة.

أخذ الحجاج في الثقافة العربية الإسلامية مجالاً واسعاً، فقد اشتهر المسلمون منذ بداية أمرهم بممارسة علم الحجاج وفن الجدل[٦٠]. وعرفت لديهم الحُجّة بأنَّها((ما دلّ به على صحة الدعوى، وقيل الحُجَّة والدليل واحد))[٦١]. وأيضًا هي ((الوجه الذي يكون به الظَّفَرُ عند الخصومة، وهو رجل مِحْجَاجٌ أي جَدِلٌ، والتَّحَاجُّ: التَّخَاصم. وجمع الحُجَّة: حُجَجٌ وحِجَاج))[٦٢]. وكان الأسلوب القرآني مبتكره الأول، وإنْ ورد بمفردات يمكن أنْ تكون منظومة من المفاهيم التي تجمعها علاقات الترادف أو التقابل أو وجه من الوجوه، كالمخاصمة، والمنازعة، والخلاف، والتحاور[٦٣]. ومن ثم تمثّل في المناظرات الفقهية لإثبات العقائد الدينية[٦٤].

يبقى مفهومه أو إطاره العام ((هو أن يقدم المتكلم قولاً (ق١) أو مجموعة أقوال، موجهة إلى جعل المخاطب يقبل قولاً آخر (ق٢) أو مجموعة أقوال أخرى سواء أكان (ق٢) صريحاً أم ضمنياً، وهذا الحمل على قبول (ق٢) على أنَّه نتيجة للحجة (ق١) يسمى عمل المحاجّة؛ فالحجاج إذن هو علاقة دلالية تربط بين الأقوال في الخطاب تنتج عن عمل المحاجّة))[٦٥]. لذا سيكون هذا المحور محاولة الكشف عن الوظيفة الحجاجية في الخطاب السياسي لدى الإمام، تسبقه المعطيات النظرية التي قاربت مبحث الحجاج.

كانت نقطة الشروع لدراسة الحجاج في العصر الحديث من داخل حقل الفلسفة، بما يعرف بـ(مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة) في تعريف **برلمان وتيتيكاه** اللذان قد وضع الأطر الهامة له، وفرَّقاه عن مفاهيم أخرى كالبرهان

والاستدلال بقولهما: ((هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أنْ تؤدِّي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أنْ تزيد في درجة ذلك التسليم))[٦٦].

يمكن حصر الخطوط المهمة لهذه النظرية في ما يأتي:

١- إنَّ الوظائف الحجاجية هي(الإقناع الفكري الخالص، والإعداد لقبول أطروحة ما، والدفع إلى الفعل).

٢- تقسيم الحجاج على نوعين(الحجاج الإقناعي، والحجاج الإقتناعي).

٣- الحجاج جملة من التصورات والمقدمات، أهمها(الوقائع، والحقائق، والافتراضات، والقيم، وهرمية القيم، والمواضع).

٤- الحوارية في الحجاج.

٥- تقنيات الحجاج تقوم على نوعين من الطرائق، (طرائق الفصل، وطرائق الوصل)[٦٧].

يروى أنه لما بويع معاوية خطب فنال من الإمام علي وابنه الإمام الحسن عليه السلام، فلم يترك الإمام ذلك فقال: ((أيها الذاكر عليًا، أنا الحسن وأبي علي، وأنت معاوية وأبوك صخر، وأمي فاطمة وأمك هند، وجدي رسول الله صلى الله عليه وآله، وجدك حرب، وجدتي خديجة وجدتك قتيلة، فلعن الله اخملنا ذكرا، ألأمنا حسبًا، وشرنا قديمًا وحديثًا))[٦٨].

ففي سياق ما تقدّم، فإنَّ الإقناع يحصل بوساطة الذي عرضه الإمام من جهة نسبه، ابتدأ بقوله (أبي علي، وأمي فاطمة، وجدي الرسول، وجدتي خديجة) وهذا مما لا يترك مجال للشك من قبل المخاطَب. أمّا الاقتناع فهو خاص بالمخاطَب أو المتلقي، فقد جاء بالنظير للإقناعي بقوله أيضاً (أبوك صخر، وأمك هند، وجدك حرب، وجدتك قتيلة) وهذا مما لا يخفى أيضًا على المتلقي فلابدّ من

اقتناعه بها بذاته. يرتبط بذلك واقعية الحجج في (أنا وأبي وأمي وجدي وجدتي)، وكذلك حقائق ما يرتبط بمقابلها في (أنت وأبوك وجدك وجدتك). كل كذلك سار في هرمية واحدة لهذه القيم وضمن إطار حواري بين متحاورين.

كما حاولت بعض الدراسات مَنْطَقة الحجاج، فكان **تولمين** زعيمًا لهذا التوجه. وقد اعتمد في نظريته هذه على مقولات أو ثلاثة أركان مهمة وهي:

المعطى ويمثله القول المصرح به.

الضمان، وهو مرجعية عقلية يستند إليها المحاجج، وغالباً ما تكون معروفة عند المتلقي لكنها مضمرة.

النتيجة، وهي الغاية من الحِجَاج، ويُراد منها التأثير في المتلقي، ومحاولة إقناعه بتغيير سلوكه، وحمله على عملٍ ما، وتكون مضمرة[٦٩].

يمكن لنا مطالعة هذا النوع من الحجاج المنطقي لدى الإمام في حادثة له مع الخليفة الأول، حيث جاء إليه يومًا وهو يخطب على المنبر، فقال له: انزل عن منبر أبي[٧٠]. وهذا يعني أن الإمام استند إلى أقوال الرسول صلى الله عليه وآله في أنه ابن الرسول، منها ((إنَّ ابني هذا سيدٌ ولعل الله أنْ يصلح به بين فئتين من المسلمين))[٧١]. ولم يرد من ذلك الأبوة الصريحة لأمير المؤمنين؛ لأنه ابن رسول الله جسمًا ومعنى. لذلك أقام حجة منطقية بأن الأحقية الشرعية في الوقوف على هذا المنبر لنا أبناء الرسول.

المعطى(م) ⟵ إذًا(ن)

انزل عن منبر أبي | إذاً أنا أحق بخلافته

نظرًا إلى أنَّ (ض) إنَّ الرسول أبي

أمّا نظرية الحجاج في اللغة وصاحبها **أوزفالد ديكرو**، ومحتواها ((أنَّ اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية، وظيفة حجاجية، وأنَّ هذه الوظيفة مؤشر لها في بنية

الأقوال نفسها، وفي المعنى وكل الظواهر الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية والدلالية))[٧٢].

فالخطاب الحجاجي في ضوء نظرية الحجاج في اللغة ((هو أنْ يقدم المتكلم قولاً (ق١) أو مجموعة أقوال، موجهة إلى جعل المخاطب يقبل قولاً آخراً (ق٢) أو مجموعة أقوال أخرى، سواء أكان (ق٢) صريحاً أم ضمنياً، وهذا الحمل على قبول (ق٢) على أنّه نتيجة للحجّة (ق١) يسمى **عمل محاجة**. فالحِجَاج - إذن -: هو علاقة دلالية تربط بين الأقوال في الخطاب تنتج عن عمل المحاجة))[٧٣].

وكانت ((الروابط والعوامل الحجاجية هي المؤشر الأساسي والبارز، وهي الدليل القاطع على أنَّ الحجاج مؤشر له في بنية اللغة نفسها))[٧٤]. كالرابط الحجاجي(حتى)، فـ((الحجج المربوطة بواسطة هذا الرابط ينبغي أن تنتمي إلى فئة حجاجية واحدة، أي أنها تخدم نتيجة واحدة، ثم إنَّ الحجة التي ترد بعد هذا الرابط تكون هي الأقوى))[٧٥]. ومن أمثلته في خطبة الإمام عليه السلام: ((واعلموا يقينًا أنّكم لن تعرفوا التقى حتى تعرفوا صفة الهدى، ولن تمسكوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نبذه))[٧٦].

الرابط الحجاجي (واو العطف)، الذي يقوم بترتيب الحجج بطريقة وصل بعضها ببعض؛ لغرض تقوية هذه الحجج ووضعها بشكل نسقي أفقي. فمن أمثلته في خطبة للإمام عليه السلام محتجًا على ومعاوية، إذ قال: ((فاخرج رسول الله صلى الله عليه وآله من الأنفس معه أبي، ومن البنين إياي وأخي، ومن النساء فاطمة أمي من الناس جميعًا. فنحن أهله ولحمه ودمه ونفسه))[٧٧].

فقد أورد حججه متسقة غير منفصلة، قائمة على أنَّ كل حجة تقوم بتقوية التي تليها من خلال هذا الرابط. ح١ (من الأنفس معه أبي)،ح٢ (من البنين إياي وأخي)،ح٣ (ومن النساء فاطمة أمي).

الرابط الحجاجي (إنَّ) المؤكدة، نجد مثال ذلك قول الإمام ((إنّ طاعتنا

مفروضة، إذ كانت بطاعة الله عزّ وجلّ ورسوله مقرونة))[٧٨]. فهذا الرابط الحجاجي يعمل في نظام تنازلي في البنية على نحو المخطط الآتي:

النتيجة إنَّ الحجة ← طاعتنا مفروضة ← بطاعة الله عزّ وجلّ ورسوله يرد في الخطاب الحجاجي تعدد الحجج التي تنتمي إلى فئة حجاجية واحدة، إلاّ أنها تختلف في ما بينها من جهة قوة الحجة وضعفها. أدى ذلك إلى وضع تراتبية منطقية تحكمها، أطلق عليه بـ(السُلَّم الحجاجي). فكل قول يرد في درجة ما من السلَّم يكون القول الذي يعلوه أقوى منه. وكذلك إذا كان القول (ب) يؤدي إلى النتيجة (ن).

فهذا يقتضي أن القول (ج) والقول(د) اللذان أعلى منه درجة يؤديان إليها أيضاً ويخضع السلَّم الحجاجي لثلاثة قوانين تحكمه، وهي(قانون النفي أو قانون تبديل السلَّم، قانون القلب، قانون الخفض)[٧٩].

يمكن قياس ذلك على خطبة الإمام عقب استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام، إذ قال: ((أيها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي، وأنا ابن النبي، وأنا ابن الوصي))[٨٠].

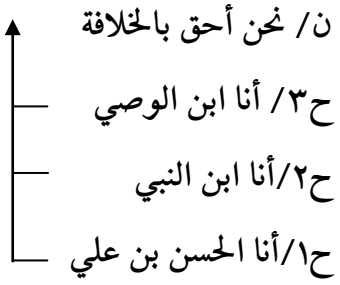

نلحظ أنّه قد رتّب حججه بتدرّج وتراتبية بحسب تفاوتها في القوة لخدمة النتيجة المضمرة بالربط الحِجَاجي في هذه الخطبة، وللدلالة على الجمع بين قولين. فهذه المجموعة من الحجج يمكن أنْ نرمز لها: (ح١) و(ح٢) و(ح٣)← (ن).

فجاءت تلك الحجج متساندة، بشكل علاقة سلّمية نشأت بين الأقوال، فسّرت عمل الرابط الحِجَاجي (الواو)، فـ(الواو) يُستعمل ((حجاجيًا وذلك بترتيبه للحجج ووصل بعضها ببعض بل وتقوي كلّ حجّة منها الأخرى))[٨١]. وكانت الحجّة الثالثة (ح٣) أقوى من (ح٢) و(ح١) في إسناد النتيجة (ن)؛ لأنّه يريد إقناعهم بهذه الأحقيّة ليتضامنوا معه عن طريق السلَّم الحجاجي.

ومن أمثلة ذلك أيضًا في خطبة له في أهل الكوفة، قال:((ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم، فنحن الذرية من آدم، والأسرة من نوح، والصفوة من إبراهيم، والسلالة من إسماعيل، وآل محمد))[٨٢]. فقد ركز في عرض حجته على أساس تسلسلي زمني، إنمازت كل حجة بتقوية الأخرى.

ن/ نحن أولى بهذا الأمر

ح٥/وآل محمد

ح٤/السلالة من إسماعيل

ح٣/الصفوة من إبراهيم

ح٢/الأسرة من نوح

ح١/نحن الذرية من آدم

فالحجج هنا جاءت متساندة نحو نتيجة،(ح١) و(ح٢) و(ح٣) و(ح٤) ثم (ح٥) ← (ن). والملاحظ فيها أنّ (ح٥) أقوى من سابقاتها في سياق الغرض الذي من اجله رتبت هذه الحجج، فوقوعها في أعلى السلّم الحِجَاجي خدمة للنتيجة المضمرة.

لم تتوقف الدراسات الحجاجية عند ذاك، فقد أفاد **ميشال مايير** من الجهود الفلسفية واللسانية المتقدمة ليضع الحجاج في إطار نظرية أوسع، أراد الرجوع بالحجاج إلى الحقل الفلسفي، عرفت بعد ذلك بـ(نظرية المساءلة).

ومفادها أنَّ الكلام الإنساني المنطوق والمكتوب عبارة عن أسئلة وأجوبة، وأنّ الخطاب عبارة عن حجج مصرّح بها يستنتج منها المتلقي أسئلة مضمرة، فإذا حصل تطابق بين تلك الأسئلة والأجوبة حصل الإقناع، وإذا لم يحصل التطابق تباعدت وجهات النظر(٨٣).

يمكن تمثيل ذلك في ما دار بين الإمام وبين أحد أصحابه عندما وجّه إليه اللوم على عقد الصلح مع معاوية، فأجابه الإمام بحجج سؤالية، فقال: ((يا أبا سعيد ألستُ حجة الله - تعالى ذكره - على خلقه، وإمامًا عليهم بعد أبي؟...ألستُ الذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا؟ قلت: بلى، قال: فأنا إذن إمام لو قمت، وأنا إمام إذن لو قعدت))(٨٤).

فهذه المجموعة من السؤالات طرحها الإمام راغبا في عرض الحجة للوصول إلى النتيجة الضمنية غير المصرّح بها، وهي معلومة لدى الإمام ولدى السامع؛ ليكون اعترافًا منه بأحقية اتخاذ القرار وشرعية صاحبه.

هوامش البحث

(١) ينظر: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد ١٨٤ .

(٢) التداولية عند العلماء العرب: ١٠.

(٣) نظرية أفعال الكلام العامة (جون لانكشو أوستين): ٧ (المقدمة) .

(٤) تيّارات في السيمياء (عادل فاخوري): ٨٩.

(٥) ينظر: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٦) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ٤٢.

(٧) ينظر: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي ٢٢٨.

(٨) السياق والنص الشعري (علي آيت اوشان): ٦٣.

(٩) ينظر: نظرية أفعال الكلام العامة ١٥ ـ ١٨.

(١٠) نظرية أفعال الكلام العامة: ١٢٤.

(١١) التداولية (جورج يول): ٨٣. ويسمّيه جورج يول (الفعل الوظيفي).

(١٢) نظرية أفعال الكلام العامة ١٣١.
(١٣) ينظر: التداولية عند العلماء العرب ٤٢.
(١٤) المصدر نفسه: ٦ .
(١٥) مقاتل الطالبيين: ٣٦ ـ ٣٧.
(١٦) في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية: ١١٣.
(١٧) الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة: ١٨٦.
(١٨) بين يدي الإمام الحسن عليه السلام(محمد بحر العلوم): ٦٦.
(١٩) السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة: ٦٨.
(٢٠) تاريخ الطبري: ١٢٨/٣.
(٢١) مفتاح العلوم (للسكاكي): ٢٥٨.
(٢٢) الأحزاب: ٣٣.
(٢٣) كشف الغمة (الأربلي): ٣٣٧/٢.
(٢٤) منطق السلطة (ناصيف نصّار): ٣٤٧.
(٢٥ أمالي الشيخ المفيد: ١٨١.
(٢٦) مروج الذهب (المسعودي): ١٠/٢ ـ ١١.
(٢٧) كتاب الفتوح (ابن اعثم الكوفي): ٢٨٤/٤.
(٢٨) الحياة السياسية للإمام الحسن (السيد جعفر العاملي):٤٣.
(٢٩) أعلام الدين (الديلمي): ٢٩٢.
(٣٠) الكامل في التاريخ: ٤/ ٤٤٧.
(٣١) المصدر نفسه: ٤ / ٤٤٧.
(٣٢) تاريخ الطبري: ٥٦/٣.
(٣٣) ينظر: المصدر نفسه، والصحيفة نفسها.
(٣٤) البداية والنهاية: ٤٨/٨.
(٣٥) المصدر نفسه: ٨/ ٤٨.
(٣٦) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر(ابن الأثير):٣٧/١.
(٣٧) ينظر: في البراجماتية – الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة ـ دراسة دلالية ومعجم سياقي ١٤٣.
(٣٨) الكامل في التاريخ: ٤/ ٤٤٧ .
(٣٩) مناقب آل أبي طالب: ٣٩٣/٤.
(٤٠) بحار الأنوار(المجلسي): ٢٢/ ٤١٢.
(٤١) الخصائص (ابن جني): ٤٦٥/٢.

(٤٢) كتاب الفتوح: ٢٨٩/٤.
(٤٣) الخرائج والجرائح (الراوندي): ٥٧٤.
(٤٤) نظرية أفعال الكلام العامة: ١٨٦.
(٤٥) المصدر نفسه: ١٨٩.
(٤٦) الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي(د.مؤيد آل صوينت): ١١٨.
(٤٧) نظرية أفعال الكلام العامة: ١٨٧.
٤٨) الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن: ١١.
(٤٩) نظرية أفعال الكلام العامة: ١٨٧.
(٥٠) بحار الأنوار: ١٣٩/١٠.
(٥١) نظرية أفعال الكلام العامة: ١٨٧.
(٥٢) ينظر: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد ٢٢٣.
(٥٣) بحار الأنوار: ٤٤/ ٢٢١.
(٥٤) نظرية أفعال الكلام العامة: ١٩٦.
(٥٥) ينظر: المقاربة التداولية(أرمينكو) ٦٢. والتداولية من أوستين إلى غوفمان ٤٤ – ٤٥ .
(٥٦) شرح نهج البلاغة: ٣٨١/٦.
(٥٧) نظرية أفعال الكلام العامة: ١٩٨.
(٥٨) مناقب آل أبي طالب: ٣٩٣/٤.
(٥٩) اللغة والحجاج (د. أبو بكر العزاوي): ١٦. العمدة في الطبع، ط١، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٦م.
(٦٠) ينظر: في تأسيس الحجاج لدى مفكري الإسلام (علي الإدريسي) ضمن كتاب التحاجج، ٨٢ ـ ٨٣.
(٦١) التعريفات (الشريف الجرجاني): ٦٧.
(٦٢) لسان العرب (بن منظور): ٢٢٨/٢ مادة (حجج).
(٦٣) ينظر: مفهوم الحجاج في القران الكريم – دراسة مصطلحية (د. لهابة محفوظ ميارة)، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد/٨١، الجزء٣/٥٢٣ ـ ٥٣٣.
(٦٤) ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ١٨.
(٦٥) نظرية الحِجَاج في اللغة (الدكتور شكري المبخوت):٣٦٠. بحث ضمن كتاب (أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم).
(٦٦) أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، بحث (الحجاج أُطره ومنطلقاته وتقنياته): ٢٩٩.
(٦٧) ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة ـ بحث في بلاغة النقد المعاصر ١٠٧ – ١٣٣.
(٦٨) الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن: ٢١.

(٦٩) ينظر: تاريخ نظريات الحجاج (فليب بروتون وجيل جوتييه) ٦٩ وما بعدها.
(٧٠) ينظر: السقيفة وفدك (الجوهري ت٣٢٣هـ) ٦٨.
(٧١) تاريخ الخلفاء(السيوطي): ١٢١.
(٧٢) اللغة والحِجاج: ٨.
(٧٣) نظرية الحِجَاج في اللغة، بحث ضمن كتاب (أهم نظريات الحِجَاج في التقاليد الغربية): ٣٦٠.
(٧٤) اللغة والحجاج: ٥٥.
(٧٥) المصدر نفسه: ٧٣.
(٧٦) بحار الأنوار: ١٠٥/٧٥.
(٧٧) ينابيع المودة: ٤١/١.
(٧٨) ينابيع المودة: ٧٤/١.
(٧٩) ينظر: اللسان والميزان ٢٧٨، وفي أصول تحليل الخطاب وتجديد علم الكلام ١٠٦.
(٨٠) الذرية الطاهرة(الدولابي): ١١٠.
(٨١) الحِجَاج في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي: (رسالة ماجستير)١٢٠.
(٨٢) أعلام الهداية ـ الإمام الحسن المجتبى: ٩٨.
(٨٣) ينظر: اللغة والمنطق والحِجَاج، بحث ضمن كتاب (الحِجَاج مفهومه ومجالاته):٥/ ٢٢-٢٤.
(٨٤) الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن: ٥٣.

قائمة المصادر والمراجع

- التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحق، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٩٣م.
- التداولية عند العلماء العرب - دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، الدكتور مسعود صحراوي، دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت،ط١، ٢٠٠٥م.
- نظرية أفعال الكلام العامة، جون لانكشو أوستين، ترجمة عبدالقادر قنيني، أفريقيا الشرق - المغرب، ط٢، ٢٠٠٨م.
- تيّارات في السيمياء، الدكتور عادل فاخوري، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٩٠م.
- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، الدكتور محمود أحمد نحلة،، الناشر مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

- النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، فان دايك، ترجمة عبدالقادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء - المغرب، ٢٠٠٠م.

- التداولية (جورج يول) ترجمة قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار الأمان الرباط، ط١،١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

- مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان،ط٤، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

- في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، د. محمد العمري، أفريقيا الشرق - المغرب، ط٢، ٢٠٠٢م.

- في رحاب أئمة أهل البيت، بين يدي الإمام الحسن عليه السلام، محمد بحر العلوم، زين للنشر.

- السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، علي آيت أوشان، دار الثقافة مؤسسة للنشر والتوزيع،ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

- تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)،لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري(ت٣١٠هـ) طبعة مطابقة لطبعة محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان،ط١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

- مفتاح العلوم، أبي يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي، تحقيق د. عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

- كشف الغمة في معرفة الأئمة، أبو الحسن عليّ بن عيسى بن أبي الفتح الأربليّ (ت٦٩٣هـ)، دار الأضواء، بيروت، الطبعة الثانية (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

- أمالي الشيخ المفيد، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

- مروج الذهب ومعادن الجوهر.الإمام أبي الحسن بن علي المسعودي، اعتنى به وراجعه كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

- كتاب الفتوح، أبي محمد أحمد ابن اعثم الكوفي ت ٣١٤هـ، تحقيق علي شيري، ط١، دار الأضواء للطباعة والنشر - بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

- الحياة السياسية للإمام الحسن(السيد جعفر العاملي):٤٣. دار السيرة، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

- أعلام الدين(الديلمي): ٢٩٢. حسن ابن أبي حسن الديلمي ت٨٤١هـ، مؤسسة آل البيت، قم، ١٤٠٨هـ.

- الكامل في التاريخ، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير، تحقيق مكتب التراث، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان،ط١٤٣٠،٢هـ - ٢٠٠٩م.

- البداية والنهاية، الإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه علي شيري،ط١، دار إحياء التراث العربي،١٤٠٨ه ــ١٩٨٨م.

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، قدّمه وعلّق عليه دكتور أحمد الحوفي و دكتور بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة، د.ط، د.ت

- في البراجماتية - الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة - دراسة دلالية ومعجم سياقي، د. علي محمود حجي الصراف، مكتبة الآداب - القاهرة، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

- مناقب آل أبي طالب، تأليف الإمام الحافظ مشير الدين أبي عبدالله محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني، قام بتصحيحه وشرحه ومقابلته لجنة من أساتذة النجف، طبع في مطبعة الحيدرية في النجف، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م.

- بحار الأنوار الجامعة لدُرر أخبار الأئمة الأطهار، تأليف الحجة الشيخ محمد باقر المجلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

- الخصائص، أبو الفتح عثمان ابن جني ت ٣٩٢هـ" تحقيق محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م.

- الخرائج والجرائح (الراوندي): ٥٧٤. مؤسسة الإمام المهدي، قم المقدسة، ١٤٠٩هـ.

- الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي(د.مؤيد آل صوينت): ١١٨.

- المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينيكو، ترجمة سعيد علوش، مركز الاقتصاد القومي، الرباط ١٩٨٦.

- التداولية من أوستين إلى غوفمان، تأليف فيليب بلانشيه، تعريب صابر الحباشة وعبد الرزاق الجماعي، عالم الكتاب الحديث للنشر والتوزيع، اربد شارع الجامعة،ط١، ٢٠١٢م.

- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، مؤسسة الصفاء للمطبوعات، بيروت - لبنان، ط٢، ٢٠١٢م - ١٤٣٣هـ.

- اللغة والحجاج (د. أبو بكر العزاوي)، العمدة في الطبع، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.

- التعريفات (الشريف الجرجاني)، السيد الشريف علي بن مُحَمَّد الجرجاني (ت٨١٦هـ)،دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط ١٤٢٤،١هـ/٢٠٠٢م.

- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين مُحَمَّد بن مكرّم بن منظور الأفريقيّ المصريّ (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى (١٣٠٠هـ).

- مفهوم الحجاج في القران الكريم ـ دراسة مصطلحية(د.لهابة محفوظ ميارة)، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد/٨١، الجزء٣/٥٢٣ ـ ٥٣٣.

- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبدالله صولة، دار الفارابي، بيروت - لبنان،ط١، ٢٠٠م.

- نظرية الحِجَاج في اللغة (الدكتور شكري المبخوت). بحث ضمن كتاب(أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم). إشراف حمّادي صمّود، طبعة كلية الآداب، منوبة.

- الحجاج أُطره ومنطلقاته وتقنياته (عبدالله صولة)بحث ضمن كتاب (أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم)، إشراف حمّادي صمّود، طبعة كلية الآداب، منوبة.

- تاريخ نظريات الحجاج(فليب بروتون و جيل جوتييه)، ترجمة الدكتور محمد صالح ناجي الغامدي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبدالعزيز، ط١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١.

- السقيفة وفدك، أبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري البصري ت٣٢٣هـ، تحقيق د. محمد هادي الأميني، شركة الكتبي للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

- تاريخ الخلفاء (السيوطي): ١٢١. دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط٣، ٢٠١٢م.

- ينابيع المودة، القندوزي الحنفي، طبع إيران، ١٣٠١ هـ.

- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الدكتور طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب،ط٣، ٢٠١٢م.

- في أصول تحليل الخطاب وتجديد علم الكلام، الدكتور طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط٤، ٢٠١٠م.

- الذرية الطاهرة، محمد بن حجر بن حارث الدولابي ت٣٦٠هـ، جماعة المدرسين، قم، ١٤٠٧هـ.

- الحِجَاج في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، حسين بوبلوطة، (رسالة ماجستير)، الجمهورية الجزائرية، جامعة الحاج خضر - باتنة -، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها (٢٠١٠).

- أعلام الهداية (الإمام الحسن المجتبى)، تصحيح ابن عاشور، الأميرة للطباعة والنشر - الخضراء للطباعة والنشر،بيروت،١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

- اللغة والمنطق والحِجَاج، بحث ضمن كتاب (الحِجَاج مفهومه ومجالاته)، الدكتور حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، أربد (٢٠١٠م).

- الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن: ٥٣.السيد مصطفى الموسوي، دار العلم للطباعة، ط١، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.